حميد ناصر الجلاوي

المطاردة

غنى (فاضل المحسن) ، حشرج صوته في البداية فتنحنح وواصل الغناء بهدوء وحزن . وكان يميل المقاطع الحزينة ويمطها فيشعر بقلبه يقطر اسى لم يعهده الا في لحظات كهذه اللحظات المفردة المليئة بالمشاعر المتضاربة ، المنيغة ، المختلطة بالوان الغروب وبروز الموتى . قال في نفسه وهو يغني « اهكـذا يخرج احبائي الذين رحلوا في قبورهـم مبتسمين على ظهر الريح فيحيطون بي في هذا السفر الوحيد ؟ » . رأى اباه يمد يده قاسية سمراء مليئة بالشقوق ، اراد ان يصرخ (ابي!) شعر وكأن أباه يلوح له بمنجل ويعطيه ارث العذاب .

جفلت الفرس وتلفت (فاضل المحسن) مد يده على عجل فـي زيقه ! لم يكن ثمة شيء الا شجيرات العاقول والشوك والحمض البري ورأس حجلة على بعد تعدو ثم اختفت تحت شجيرات الحمض البري . مد (فاضل المحسن) راسه الى اذني فرسه قال لها :

ـ امامنا ليل .. وفوهات بنادق .

اخذت تتقافز والحوافر تنقر الارض وتتناغم مع الظلمة الهابطـة على الوان الغروب والتراب يتناثر مع وقع الحوافر ، يتناثر كحبـات الملبس .

انعطفت فرس (فاضل المحسن) بـين شجيرات الحمض البري العالية المتشابكة وكانت ذؤاباتها تضرب قدميه وبطن فرســه العاري وتنفزها .

في هذا المكان يحس كل مرة بالخوف من ان يروح غيلة ، فعيون الذئاب تترصده في الحفر وتحت الظلام وستتلامض فوهات البنـادق وسيتفجر الدم الزكي من جبهة فرسه ومن صدرها الذي يدفع الريح . وشعر بقلبه ينقبض . قال :

« احقا ان هذا الصدر يختفي ويذهب طعما للضباع السائبـة في الخلاء واحرم من شم عرق هذه الفرس الجسور ، رفيقة العمر والخوف والكبرياء » قال لها :

ـ اتمنونا يا كريمة النسب على هذا الارث المعجون بالمحبة . على هذه الاوراق التي تنام بين ظهرك وبيني تشدنـا الى بعضنا آصرة مـن خبز وكبرياء .

مد يده تحت (الجلال) وتلمس الاوراق المرصوفة العابقة برائحة الحبر الطباعي المشدودة الى ظهر الفرس بقوة ، المتشبثة بالجلد تشبث المخالب وعندما سحب يده تشمم رائحة الحبر ، قال مع نفسه : « لماذا تكون هذه الاوراق خطرة وعنيفة وتثير الخوف » ومد راسه نحو راس فرسه قال لها :

ـ اتعرفين لماذا ؟

نخرت بقوة فضرب رقبتها بكفه واخذت تعدو ولكزها فتنـاغمت ضربات الحوافر على الارض ورفعت اذنيها بغتة فتوجس (فـاضل المحسن) الخطر ، قال :

ـ لا بد انها شمت رائحتهم .

ارخى اللجام ولكزها فهبت كالريح ولم تخلف غير التراب . كان راسه بين اذنيها . ورأسها بين ذراعيه والاوراق العابقة بالحبر تشدهما والخوف والفوهات تتراصد ، تنتظر ، لعلعت رصاصة ، احس بها تمرق من خلف اذنه تئز ، قال لفرسه :

ـ لا عليك ، اسبقي الريح فثمة رصاص كثير .

وسمع صوتا يصرخ به :

ـ زنديق ملعون الوالدين !

وصاح اخر :

ـ كلب ابن الكلب .

والرصاص يلعلع ، يئز ، يتناثر حول راسه وقرب اذنيه ، مد يده والتفت ، ازت رصاصات مسدسه . صاح به احدهم :

ـ سنصدك صيد الثعالب يا فاضل المحسن .

قال له (فاضل المحسن) :

ـ هذا زمان كتب علينا ان نلتقي هكذا .

وقال مع نفسه « هؤلاء الفقراء الذين يطاردونني خدم الشيـخ وعريف المخفر » واختلطت اصوات الحوافر والرصاص ولهـاث الخيـل والرجال ، ولاول مرة شعر (فاضل المحسن) انه يحمل عذاب الناس ، كان لا يصدق الحكايات عن المطاردات والطامورات والزنزانات الباردة . كان راسه قرب فرسه والريح تعبره باردة ندية والرصاص يلاحقـه ، وشاهد الدم ينبجس من رقبة فرسه قال بأسى ورعب : (آه) . ووضـع يده على الجرح السابح بالدم وشعر بحرارته وعنفوان جريانه ، نزع (يشماغه) ولفه على العنق ، ربط الجرح وتحسس الـدم يصبـغ (اليشماغ) وينساب خيوطا على الرقبة وينكور في النهاية ويسقط قطرات دسمة على الارض .

شعر ان روحه يعصرها الم غريب ، جديد ،وغزتهصورة ابنهوالكلب ينهش عضلة ساقه ويلوكها ويصبغ بدمه الارض ، ولكن اين مصاب ابنه من هذا المصاب ومن هذه الواقعة الغريبة والقاسية ؟ وكيف يعود الى قريته بلا رفيق اصطحبه ، كيف ذاك ؟ وما الذي يقوله لو عـاد حيا

للفلاحين ؟ ولزوجته ولاولاده وما الذي سيأخذه الاولاد الى النهر ليشرب الماء ؟ غير هذه الفرس .

اراد فاضل المحسن ان يبكي او يصرخ بالليل وبهؤلاء اللصوص المقنفين اثره ، ود لو يقترب من قريته ويملأ الريح بصوته :

ـ اين انتم يا معذبين يا ناس يا ابناء دمي ولحمي وغربتي وعذابي.

غير انه اوصد الباب بوجه الخور وشد الجرح بعنف واحس بيده تلتصق به تتحدبه : توأمين . قال لها :

ـ يا روحي ، نحن توأمان .

وكانت حرارة الدم عنيفة والرصاص يتضاءل ثم ينهمر واصواتهم تشق الليل خلفه .

ـ سنمسكك حتى لو ذهبت الى السماء .

ـ سنصمل اذنيك وندور بك القرى عاريا .

ـ يا زنديق ، سنفعلها بزوجتك .

تفل (فاضل المحسن) وود لو ينعطف او يقف ليكمن لهم ويملأ هذا الفم بالرصاص ويشقه بالخنجر ثم يملأه بالروث ، غير ان خشخشة الاوراق تحته دفعته ، صرخت به :

ـ الى الامام .

احس بها تمنحه الحياة فشعر بالتطاول الى الاعالي وبصدره يمتلىء باحساس غامر من سعادة قديمة معجونة بالخوف والرصاص يتناثر رصاصة ازت فوق فروة رأسه وشعر بها تحرق الجلد ، حامية رهيبة ثم ثقبت اذن الفرس ، رفع يده عن جرح رقبتها وتحسس جرح رأسه فبلل الدم اصابعه وكفه واعاد الكف وغطى الجرح العميق في رقبتها . قال لها :

ـ اعرف ان الالم يعصر قلبك والنزيف يسلب حياتك ، اصمدي يا رفيقة العمر والعذاب .

ولاول مرة تبزغ ايام الحراثة والمحراث الصديء الحديدة تحمله على ظهرها الى الارض ثم تسحبه من الفجر حتى الغروب وهو يصيح بها .

ـ خط .. خط (١) .

فتنصاع وتسير جنب الخط الاول وتنفر عروقها وينصبب العرق من ابطيها ورقبتها ورآها وهي تحمل كدسان الحنطة والشعير ورآها وهي تركض وهي تحمل مستقبل الناس . وقطع صراخهم خيالاته عليه :

ـ فاضل المحسن ! اين انت ؟ سنطعم الكلاب رأسك

ـ اتتجاسر على الحكومة ؟

وصاح به عريف المخفر :

ـ ساجعل حبسك الف عام واثقل عليك الحديد .

وشعر فاضل المحسن بقوى فرسه تضعف وبالحسرة تملأ صدره ، تساءل :

ـ أفي مثل هذه الامكنة يحل بي الخراب ؟

لكزها وشعر بقدمه تنغرز في بطنها قاسيا اليها . قال لها :

ـ اعذريني فثمة موت يترصدنا .

وسمع نباح كلاب يأتيه من بعيد . وبدا له الامر وكأنه مجرد حلم لا غير .. فهذا درب لا تقع على جانبيه قرى وقطع عليه الرصاص سماع اصوات الكلاب لكنه شعر بطمأنينة وبأنه مقترب من الناس السمحين ، قال لفرسه :

ـ فرسخ وبعده الامان ، تشجعي فليس السقوط في اول الدرب لنا ، ليس لنا .

وكانت تنخر بضعف وود لو يواسيها ويواسي نفسه فيبكي، يصرخ. جاءته الرصاصة هذه المرة في الكتف ، وشعر وكأن كتفه تقلع وبيده القابضة على الجرح تسقط كالخرقة الى جانبه والاوراق تخشخش تحت (الجلال) .

علت اصوات الكلاب وحرف فرسه عن الدرب بدرب فرعي ويده الى جانبه تتدلى والجرح في الرقبة ينز . قال لها :

ـ تتعذب ! اعرف انك تتعذبين مثلي ، لكن امامنا دربا !

واخذ يهمزها ويلكزها ، وتلقفهما الليل الممتد الى البعيد وغابات الشجيرات البرية الكثيفة وعواء الذئاب البرية وبنات اوى واصوات الجنادب .

العراق ـ واسط

---

(١) نداء للفرس وقت الحراثة .

مؤلفات كولن ولسون

من منشورات دار الآداب

- ضياع في سوهو
  ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
- الشك
  ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق
- المعقول واللامعقول في الادب الحديث
  ترجمة انيس زكي حسن
- اصول الدافع الجنسي
  ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
- اللامنتمي
  ترجمة انيس زكي حسن
- ما بعد اللامنتمي
  ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب
- القفص الزجاجي
  ترجمة سامي خشبة
- طقوس في الظلام
  ترجمة فاروق محمد يوسف
- سقوط الحضارة
  ترجمة انيس زكي حسن
- رحلة نحو البداية
  ترجمة سامي خشبة
- الشعر والصوفية
  ترجمة عمر الديراوي
- الحالم
  ترجمة سامي خشبة